الفصل الثالث عشر

أضواء على سيكولوچية الشخصية العربية(*)

* تمهيد.
* هل توجد شخصية عربية.
* الخصائص ذات الطابع الانفعالي.
* الخصائص ذات الطابع الفكري.
* مستقبل الشخصية.
* خاتمة.

(*) دراسة أعدها المؤلف في أواسط عام ١٩٧٨.

تمهيد:

«اعرف نفسك» شعار فلسفي رفعه فيلسوف اليونان العظيم سقراط منذ ما قبل الميلاد بأكثر من أربعة قرون. ولقد بقي هذا الشعار بما ينطوي عليه من حكمة بالغة يتردد حتى يومنا هذا، ذلك أنَّ فهم الشيء ومعرفته هو الخطوة الأولى في سبيل التحكم فيه وتطويعه وفق ما نريد أن يكون عليه. ولعلَّ هذا هو أهم الأسباب التي تدعونا الآن إلى إلقاء بعض الأضواء على سيكلوجية الشخصية العربية.

هل توجد شخصية عربية:

من المتفق عليه في الإصطلاحات العلمية للعلوم الإنسانية وجود مصطلح شخصية Personality ويقصد به التنظيم الديناميِ لسمات وخصائص ودوافع الفرد النفسية والفسيولوجية والجسمية، ذلك التنظيم الذي يكفل للفرد توافقه وحياته في المجتمع، ولكل شخص تنظيمه هذا الذي يميزه عن غيره. وبمعنى آخر فإنَّ لكل فرد في المجتمع شخصيته الفريدة.

ويمكن بالقياس على تعريف الشخصية هذا أن نقر بوجود ما يعرف بالشخصية القومية، أي الخصائص والملامح التي تميز شعباً عن غيره أو أمة عن غيرها. ويطلق على الشخصية القومية اصطلاح «الطابع القومي National Character» في المصطلحات العلمية لعلم النفس، وفي هذا الصدد يعرف

انجلش وإنجلش الطابع القومي بأنّه «الخصائص الشخصية الثابتة نسبياً والأكثر وجوداً وانتشاراً في أمة معينة»[1].

وبما أنَّ العرب تضمهم جميعاً قومية واحدة، لم يعد وجودها الواقعي محل جدل، حيث اللغة المشتركة، والتاريخ الواحد، والامتداد الجغرافي المتصل، والأماني المشتركة، فإنَّ الشخصية العربية تفرض عندئذٍ وجودها حقيقة قائمة وواقعاً ملموساً لا سبيل إلى نكرانه، وإن اختلف الناس بين مؤيد يريد تقوية هوية الأمة العربية أو معارض يريد تقويضها وهدمها.

والآن، حيث انتهينا إلى الإقرار بوجود شخصية عربية، على نحو ما عرضنا ـ ننتقل إلى بحث علمي نلتزم فيه موضوعية الرأي والعلم قدر استطاعتنا، ونبتعد فيه ـ ما وسعنا الجهد ـ عن الانحيازات القومية والذاتية علّنا نستطيع العثور على بعض الخصائص السيكلوجية التي تميز الشخصية العربية. وليكن بدؤنا بالخصائص ذات الطابع الانفعالي الأوضح وانتهاؤنا بالخصائص ذات الطابع الفكري الأوضح.

أولاً ـ الخصائص ذات الطابع الانفعالي:

نقصد بالخصائص ذات الطابع الانفعالي تلك الخصائص والسمات التي يسود فيها الجانب العاطفي والوجداني وما يترتب على ذلك من أساليب الشخصية في التعامل مع هذا الجانب وتوجيهه وسياسته، ونرى بهذا الصدد أنَّ من أهم ما يميز الشخصية العربية:

١ ـ الحدة الانفعالية وسهولة تقلبها:

من الملاحظ على الشخصية العربية سهولة استثارتها الانفعالية، فمن السهولة بمكان أن ينقلب التأييد إلى معارضة، أو تنقلب المعارضة إلى تأييد

---

(1) (English, H. B. and A. C. English: A Comprehensive Diotionary Et Psychological and Psychoanalytical Terms, Longmans 1958).

في أي من البلاد العربية بسبب حدث سطحي تافه. وهذه الخاصية النفسية تناقض ما هو معروف بالبرود الانفعالي والذي تتميز به بعض الشخصيات القومية كالشخصية الإنجليزية على سبيل المثال[1].

ونلمس مصداقاً لهذا كثيراً من الظواهر الاجتماعية في مختلف البلاد العربية. من أمثلة التعصب الشديد لأندية كرة القدم وانتشاره الأشد بين نسبة كبيرة من مواطني البلاد العربية. ومن أمثلة ذلك أيضاً التقلب الوجداني السريع والمتكرر في العلاقات بين كل بلد عربي وآخر. فإذا ما نظرت إلى خلاف بين بلد عربي وآخر وجدت من حدَّة الانفعال ما يجعلك تعتقد أنَّه خلاف سوف يدوم أبداً، ثمَّ يحدث حدث ما فإذا بهذا الخلاف يدفن ليحل محله اتفاق ووفاق يخيل إليك أيضاً أنَّه أبدي لشدة ما يصاحبه من ترحاب وانفراج وتهليل. وإنك لواجد نفس الأمر بين البلد العربي والبلد الأجنبي بكيفية مشابهة، فإذا بالعدو ينقلب بين يوم وليلة إلى صديق حميم، وإذا بالصديق الودود ينقلب بين يوم وليلة إلى عدو لدود.

وليس الأمر منتهياً عند مجرد الحدَّة الانفعالية وسهولة تقلبها مما يفقد فينا ثقة الصديق ويطمئن العدو، بل إنَّ هذه الخاصية من طبيعتها أنَّها توقف في الإنسان منطق العقل وتعميه عن رؤية الواقع رؤية واضحة، فتكون من نتيجة ذلك ألَّا يكون رد الفعل متأنياً مدروساً بروية ومن وجوهه المختلفة، مما يوقعنا في الكثير من المشاكل، ويجلب علينا الكثير من الأضرار.

إنَّ الأعداء الذين يتربصون بالأمة العربية في محاولة لتبديدها وقبرها يعرفون عنَّا هذه الخاصية ويستثمرونها لتحقيق أهدافهم أبشع استخدام فيكفي ـ على سبيل المثال ـ أن يؤجر عدو لنا مواطناً لإحدى البلاد العربية ويكلِّفه بالإساءة لمواطن من بلد عربي آخر، ثمَّ تقوم أجهزة الإعلام بتضخيم

---

(1) (Argyle, M; Psychology and Social Problems, Social Science Paperbacks, London, 1967, P. 31).

هذا الحدث، حتى يسبب هذا أزمة بين البلدين الشقيقين، أو على أقل تقدير تتأثر اتجاهات مواطني بلد المساء إليه نحو مواطني بلد من أساء. وبمعنى آخر فإنَّ الحادث الفردي الذي ينبغي أن يظل محصوراً في صفته الفردية ينقلب بسهولة وبغير منطق عقلاني مقبول إلى حدث عام يؤثر في وجدان بلد بأسره تجاه بلد شقيق بأسره أيضاً. إنَّ هذا الموقف اللامنطقي في هذا المثال الذي ضربناه الآن يشبه في منطقه المرفوض أن نحكم على أفراد شعب معين بأنَّهم خونة وجواسيس على بلادهم لصالح عدوهم لمجرد اكتشاف شبكة تجسس من أعضائها فرد أو اثنان من هذا الشعب المعين.

هذا، وسوف نرجيء مؤقتاً محاولة الإشارة إلى العوامل الأساسية التي أكسبت الشخصية العربية هذه الخاصية الانفعالية، على أن نعود إليها في أماكن أخرى من هذا البحث في الحين المناسب.

٢ ـ التوحد بالمعتدي:

في كتابها «الأنا وميكانيزمات الدفاع» خصصت أنا فرويد الفصل التاسع منه للحديث عن ميكانيزم «التوحد بالمعتدي». وميكانيزم التوحد بالمعتدي هو وسيلة نفسية تلجأ إليها الشخصية إذ تتشبه في بعض جوانبها الانفعالية والسلوكية بالشخص الذي تخشى عدوانه. وبهذا لا تعود الشخصية مهددة خائفة بل تصبح مهددة مخيفة. وهكذا يعالج الفرد مخاوفه ويتخلص منها إذ يحس القوة والاقتدار. وتلخص أنا فرويد هذا في عبارتها: «فبمحاكاته شخصية المعتدي، يتبنى خصائصه، وبمحاكاته عدوان المعتدي يحيل نفسه من الشخص موضع التهديد إلى الشخص مصدر التهديد»[1].

لقد مرَّت الأمة العربية في الفترة الأخيرة من تاريخها بعدَّة قرون تعرض فيها الشعب العربي للعدوان والهوان، من جانب استعمار طال بقاؤه وتعددت

---

(١) أنا فرويد: الأنا وميكانيزمات الدفاع ـ ترجمة الدكتور صلاح مخيمر وعبده ميخائيل رزق ـ مراجعة الدكتور مصطفى زيور ـ مكتبة الأنجلو المصرية ـ القاهرة ـ ١٩٧٢ ص ١١٩.

أجناسه واتجاهاته وإن اتُّحدت أهدافه في إذلال الأمة العربية، واستنزاف مواردها الاقتصادية، وتبديد قوميتها العربية، وتفتيت وحدتها التاريخية. وكان من جراء ذلك أن ضعفت الشخصية العربية وأحسَّت بالقصور إزاء مستعمريها، مما مكَّن المستعمر من مضاعفة عدوانه عليها، واستنزافه لقواها المختلفة خاصة إمكانياتها الاقتصادية. وهكذا هيَّأ هذا الظرف التاريخي الذي طالت مدَّته وزادت وطأته على الشخصية العربية أن تلجأ إلى وسيلة التوحد بالمعتدي لتجد فيه إحساساً ذاتياً بالقوة ينفي إحساسها بالقصور إزاء المستعمر، ودرءاً للخوف من التهديد المستمر بالعدوان.

وإذا تأملنا نتائج توحد الأمة العربية بالمعتدي (وهو هنا المستعمر) لوجدنا أنَّ بعضها كان ذا فائدة للشخصية العربية في حين كان بعضها الآخر ضاراً بها. فمن أمثلة النتائج الإيجابية امتصاص الشخصية العربية واستدماجها لعلوم وتقنيات وأساليب الإنتاج التي يتميز بها المستعمر، وليست البعثات التدريبية والتعليمية التي خرجت من الوطن العربي إلى أوروبا في عهد محمد علي وما قبله وما بعده، بما حققته من نتائج إيجابية إلاَّ مثلاً واضحاً على ما نقول. وما محاولاتنا حتى الآن الاستفادة من أقصى ما وصل إليه العلم الأوروبي والأمريكي وتطبيقاته ونقلها إلى الوطن العربي للاستفادة منها إلاَّ مثلاً آخر على ما نقول.

لكن التوحد بالمعتدي جلب مع ذلك للشخصية العربية الكثير من الأضرار الخطيرة لعلَّ أهمها:

(أ) في قطاع من الشخصية العربية لا بأس بحجمه استدمجت فيه الشخصية العربية لغة المعتدي حتى كادت تنسى لغتها القومية (كما حدث لعرب الشمال الإفريقي والصومال)، بل إنَّ الأمر تعدَّى ذلك حتى أصبح هذا القطاع يزهو باللغة الدخيلة ويحتقر اللغة القومية، وكأنَّ مجرد التشبه اللغوي بالمستعمر- حتى بعد أن رحل- هو الدليل الوحيد على القوَّة والتقدم والعصرية. والخطورة في هذا الأمر تتمثل أكثر ما تتمثل في أهمية اللغة

للوحدة العربية، ولنقل التراث الحضاري العربي العظيم عبر أجيال الأمة. ومع إيماننا بأنّه قد جرت من جانب المستعمر محاولات مقصودة ومدروسة لتغيير لغة قطاعات عريضة من الشعب العربي سواء استخدم فيها الترغيب أو الترهيب إلاّ أنّ المقاومة التي يلقاها التعريب الآن والتمسك التلقائي بلغة المستعمر في هذه القطاعات ـ حتى بعد أن رحل المستعمر وانكسرت شوكته ـ يقوم دليلاً على رأينا.

(ب) لقد وصل التوحد بالمعتدي في قطاع هام ومؤثر من الشخصية العربية إلى حد التوحد بأهداف الاستعمار ذاتها فيما يتعلّق بتقويض الوحدة العربية وتبديد القوّة الذاتية للعالم العربي، حتى يتم القضاء نهائياً على الأمة العربية. لقد نجح الاستعمار في تفتيت الأمة العربية إلى كيانات صغيرة يضعف كل منها وحده عن مقاومة الاستعمار والتصدي لأهدافه. فقسم المغرب العربي إلى تونس والجزائر والمغرب وليبيا، وقسم الشام إلى سوريا ولبنان والأردن وفلسطين، وهكذا... ثمّ بذر الاستعمار بذور الشقاق بين هذه الكيانات العربية بعضها البعض ونفخ فيها، واستغلّ تفككها وضعفها ليزرع فيها ويدعم الكيان الإسرائيلي، هذا الكيان الذي رأى فيه المستعمر خير ضمان لاستمرار استنزاف طاقات الأمة العربية وتجزئتها وضعفها. ولا شكّ أنّ الاستعمار كان شديد الذكاء في تحقيق أهدافه هذه، فهي مصلحته الأكيدة، لكن الغريب حقاً أن يتوحد قطاع هام ومؤثر كما قلنا من الشخصية العربية بأهداف المستعمر ويقيمها داخل نفسه هدفاً ذاتياً له.

إنّ نظرة على ما دار ويدور خلال الحقبة التاريخية الحالية بين كل دولة عربية وشقيقتها (والتي تكون أحياناً جارتها المباشرة) من كثرة الخلافات وتبادل الاتهامات، والحذر والتربص، والتوجيه المتبادل لمظاهر العدوان المختلفة، نقول إنّ نظرة على كل هذا وغيره كثير يؤكد رأينا في أنّ قطاعاً هاماً مؤثراً من الشخصية العربية قد توحد بأهداف المعتدي المستعمر وتمثلها وأصبح حريصاً على تحقيقها حرص المستعمر ذاته على تحقيقها، تلك

الأهداف التي ترمي إلى ضعضعة الكيان العربي وتمزيقه، وتبديد قوّته في صراعات جانبية يتلهى بها عن صراعه الأساسي ضدَّ المستعمر والعدو الحقيقي ويتأخر بها قيام الوحدة العربية الشاملة.

وهنا قد يقول قائل إننا نمعن بهذا في تفسير حركة التاريخ تفسيراً نفسياً يقربه من التفسير المثالي، وهذا ما لم نقصده. إنَّ هذا التفسير النفسي لا شك له أساسه المادي المتمثل أصلاً في الاستفادة النفعية المباشرة والسريعة التي يجنيها أو يحلم بجنيها هذا القطاع المقصود من الشخصية العربية. لكن هذه الاستفادة النفعية ـ والمادية في أساسها ـ لا تبدأ فعلها إلاَّ بعد وصولها إلى البطانة النفسية الشخصية وعياً بمصلحتها، ورغبة في الحفاظ على بقائها، وتلذذاً بتحقيق إشباعاتها ورغباتها. ومن الجدير بالذكر أنَّ هذا الوعي قد يبلغ من الوضوح حد وعي شخصية أي منَّا بمصالحه ودوافعه الذاتية الشعورية. كما أنَّ هذا الوعي قد يكون وعياً غامضاً يتردد صداه داخل الشخصية دون أن يصل بالشخصية إلى مستوى وعيها الشعوري، وبلغة التحليل النفسي يكون الوعي هنا «وعياً لا شعورياً» بالرغم مما يحمله هذا المصطلح من تناقض في الظاهر.

(جـ) إنَّ المعتدي المستعمر كان ينظر ـ وفي الغالب ظل حتى يومنا هذا ينظر ـ إلى العرب نظرة يغلب عليها الاستخفاف بشخصيتهم والاستهانة بكرامتهم وآدميتهم، وكأنَّ المستعمر من طينة والعرب من طينة مخالفة أقل في القيمة والتقدير، وأدعى للازدراء والاحتقار. وكما ذكرنا فقد توحد قطاع هام ومؤثر من الشخصية العربية بالمعتدي، وكان من نتيجة هذا التوحد أن توحد بنظرة المستعمر تلك إلى الشخصية العربية، وليس بغريب اليوم أن نلتقي ببعض العرب الذين هم أشد احتقاراً لزملائهم العرب عن أشد القوميات عنصرية ضدَّهم.

وليس من شك في أنَّ هذه السلبيات التي نتجت عن توحد الشخصية العربية بالمعتدي تمارس فعلها الآن بقوَّة داخل التفاعلات والتناقضات

الحالية التي تعتمل في الشخصية العربية.

ومن الجدير بالذكر أن ميكانيزم التوحد بالمعتدي هو أظهر الأساليب التي لجأت وتلجأ إليها الشخصية الإسرائيلية حتى يومنا هذا لإقامة إسرائيل وتقويتها. فالاعتداءات والعداوة الشديدة التي لقيها اليهود من المجتمع الأوروبي والتي وصلت إلى قمتها من ألمانيا النازية أدَّت إلى توحد الشخصية الإسرائيلية بالنازية الألمانية (على شاكلة التوحد بالمعتدي وبنفس الدينامية والهدف) فإذا بالشخصية الإسرائيلية تنقلب من شخصية تلقى العدوان النازي وتحس القصور إزاءه إلى شخصية معتدية تهدد بالتدمير فلسطين بأكملها وبقية الأمة العربية. ويعينها الاستعمار بمختلف اتجاهاته ومواقعه، ويكسبها قوَّة تنجح بها في تحقيق المراحل الأولى من أهدافها فتحسن القوة الطاغية المفاجئة. حقاً لقد نجحت وسيلة التوحد بالمعتدي في دفع الشخصية الإسرائيلية نحو تحقيق حلمها في إقامة إسرائيل، لكن ماذا يحدث إذا ظلَّت الشخصية الإسرائيلية متمسكة بهذه الوسيلة في المستقبل!؟ لا شك أنَّ هذه الوسيلة التي كانت من أكبر ما ساعد على قيام إسرائيل وتقويتها سوف تنقلب من حيث أثرها إلى النقيض تماماً فتصبح من أكبر أسباب انهيار إسرائيل وتقويضها. والأمر هنا ليس بمستغرب على الإطلاق. تماماً كما قصد الألمان النازيون إلى إفناء اليهود، فإذا بالنتيجة تكون على العكس تماماً حيث تقوم إسرائيل قوية يدعمها العالم شرقه وغربه كرد فعل معاكس للاضطهاد النازي وتكفير من جانب المجتمع العالمي عمَّا لاقاه اليهود من اضطهاد سواء في أوروبا عامة أو على أيدي النازي خاصة. فاستمرار توحد إسرائيل بالمعتدي وتوجيه عدوانها عنيفاً نحو العرب سوف يؤدي إلى استفزاز رد فعل عدواني مقابل من جانب العرب تجاه إسرائيل، علاوة على أنَّه سوف يؤدي - وقد بدأ يؤدي بالفعل - إلى انصراف الأنصار والمؤيدين لها من دول العالم عندما تتكشف لها حقائق التعنُّت الإسرائيلي واضحة. عند ذاك سوف يتكرَّر أكتوبر آخر أشد وأعنف، تعاني منه إسرائيل أشد المعاناة وأقساها، حيث أثبت

أكتوبر أنَّ كفاءة المقاتل العربي وشجاعته وسلامة خططه القتالية لا تقل عن مثيلاتها لدى الإسرائيلي. ومما لا شكَّ فيه أنَّ استمرار إسرائيل في القيام بدور المعتدي المتغطرس الذي يدوس على كرامة العربي سوف يدفع العربي إلى مزيد من القناعة بعدالة قضيته وحاجتها للتضحية حتى يمنع عن نفسه العدوان الموجه إليها من إسرائيل.

٣ ـ سمات الشخصية القبلية:

الشخصية العربية تشيع فيها خصائص الشخصية القبلية إلى حد كبير. فمعظم العرب يعيشون على الرعي والزراعة ذات الطابع البدائي حتى عهد قريب. ومن شأن هذا النمط من العمل أن ينمِّي في أفراد المجتمع الانتماء والولاء للقبيلة والتعصب لها. وتصبح علاقات القرابة في ظل هذا النظام أقوى العلاقات الاجتماعية وأوثق الروابط الانفعالية وأكثرها حرارة وقيمة. فإذا بالأخ ينصر أخاه ولو على ظلم، ويعادي من عادى فرداً من قبيلته ولو على حق. ويلخص هذا المثل الشعبي القائل: «أنا وأخويا على ابن عمي وأنا وابن عمي على الغريب» ظاهرة العلاقات القبلية أبلغ تلخيص.. وسمات الشخصية القبلية فيها إيجابياتها كما أنَّ لها سلبياتها على المجتمع العربي.

ولعلَّ من أبرز إيجابيات سمات الشخصية القبلية.

(أ) وحدة المشاعر العربية في مواجهة العدوان والخطر: فالخطر عادة يوحد الأمة كعامل يقويها في مواجهته والتغلب عليه. فالاعتداء الذي تقوم به إسرائيل على أي جبهة عربية يكون له رد فعل من الغضب النفسي يعم كافة البلاد العربية، ويدفع هذه البلاد نحو التنسيق لملاقاة هذا الاعتداء والانتصار عليه: ويكفي أن نعود بالذاكرة إلى الجو النفسي المشحون والذي عمَّ أفراد الأمة العربية وقت معركة الكرامة، وقبلها وقت العدوان الثلاثي على مصر، ووقت كارثة يونيو، وبعدها وقت معركة أكتوبر. إنَّ الأمَّة العربية في مثل هذه الظروف ينبض قلبها ويتأثر وجدانها ويتوحَّد انفعالها وكأنَّها أسرة واحدة كبيرة،

أو قبيلة واحدة منتشرة تسود أفرادها قرابة دموية، هي في حقيقتها وحدة سيكلوجية قبلية.

(ب) تقوية روابط القومية العربية: إنَّ سمات الشخصية القبلية المنتشرة بين العرب هي التي تعمل على تغذية وتقوية ظاهرة الوحدة العربية، وكأنَّ الأمة العربية قبيلة واحدة ممتدة على مساحة جغرافية متصلة، وفترة تاريخية مستمرة، تتكلم لغة واحدة، وتشيع بين أعضائها روابط مختلفة الدرجة. وتصبح البلاد العربية وكأنَّ كلاً منها يمثل أسرة صغيرة نسبياً من أسر هذه القبيلة الكبيرة. وهكذا نجد للمواطن العربي عضويتين في نفس الوقت، عضوية محلية، وعضوية عربية، تقوم العضوية الأولى مقام الأخوة، بينما تقوم العضوية الثانية مقام أبناء العم في المثل الشعبي سابق الذكر.

أما أبرز سلبيات سمات الشخصية القبلية فإننا نرى من أهمها:

(أ) الذاتية (ونقص الموضوعية)، في تقدير الأمور:

ويعتبر هذا من أكبر عيوب الشخصية التي تحمل الملامح القبلية. فكل ما يفعله الأخوة والأقرباء هو الصواب بعينه، وكل ما يفعله الغرباء هو الخطأ الذي ينبغي أن يقاوم. فينبغي على كل عضو في القبيلة أن يتبنى وجهة نظرها بغض النظر عمَّا تحمل من مضمون، وإلاّ عد منشقاً عن القبيلة خارجاً عليها، يطارده غضبها ولعنتها. وهكذا يسكت العقل فلا يعود ينظر للأمور يفحصها بموضوعية وتجرد، ويسلم قياده للأهواء الذاتية التي تتبناها القبيلة، فيرى صائباً ما تراه هي صائباً، ويرى مداناً ما تراه هي مداناً، وهكذا...

ويمتد الأمر حتى يشمل الصديق ومحل الثقة الشخصية من الزملاء أو الحزب ليصبح في منزلة القريب والأخ. عندئذٍ يصبح كل ما يفعله صحيحاً يستحق التدعيم وكل ما لا يرضاه جريمة تستحق العقاب. وتهدر الموضوعية في تقدير الأمور وفي تقييم الرجال. ولا يعطى منصباً ذا شأن إلاَّ من كان قريباً أو صديقاً محل ثقة، بغض النظر عن كفاءته لشغل هذا المنصب، وأمانته في تحمل مسؤولياته. ويصبح هذا بالتالي مطمئناً تماماً إلى نمط العلاقة القبلية

الذي يربطه برئيسه أو من عينه والذي سوف يؤدي إلى حمايته من كل سوء. إنَّ القضية التي طرحت للنقاش في بعض أرجاء الوطن العربي بالأمس القريب والتي عرفت «بأهل الثقة أم أهل الخبرة»، والتي لا زالت حتى الآن تروى قصصها ووقائعها في صحفنا ووسائل إعلامنا تمثل مدى التأثير السلبي الذي يعانيه الوطن العربي من جراء نمط العلاقات القبلية هذا.

(ب) نقص التحديد، وقصور الضبط، وقلّة الدقة:

وسائل الإنتاج وممارسات العمل في الرعي والزراعة البدائية لا تحتاج إلى التحديد القاطع والضبط الشديد والدقة العالية التي تحتاجها وسائل الإنتاج الصناعي والزراعي المتقدم. فالعمل في المصانع الحديثة والمزارع المتقدمة يلتزم بخطوات تفصيلية محددة، وبتوقيتات مضبوطة، وبدقة عالية حتى يخرج المنتج خالياً من العيوب وبالكم المطلوب وما لم يتحقق ذلك اختل العمل، وتعرض المصنع أو المزرعة للأضرار والخسارة. فعلى سبيل المثال إذا تأخّر عامل من إحدى الجماعات التي تشتغل على خط إنتاج معين خمس دقائق عن موعده تعطل العمل كله على خط الإنتاج هذا. وإذا لم يلتزم العامل على الآلة بتوجيه دقيق لحركاته وخطوات عمله قد تحدث له إصابة يضار منها، أو تتلف منه الآلة أو المنتج مما يعرضه للمسؤولية والمجازاة. وما لم يلتزم العامل بالدقة الشديدة في عمله فإنَّ منتجاته سوف تخرج وبها الكثير من العيوب التي تجعل السوق ينصرف عنها إلى غيرها، مما يضر بصالح المؤسسة التي يعمل بها... إذن فالمجتمع الصناعي يتطلب التحديد والضبط والدقة، وتعتبر هذه السمات من ألزم ما يحتاجه وبالتالي تتطبع الشخصية بها.

وفي المقابل فإنَّ مهنة الرعي والزراعة البدائية لا تتطلب كل هذا التحديد والضبط والدقة، فيمكن للراعي أو المزارع التقليدي أن يتقدم أو يتأخر بعض الوقت في عمله دون تأثير على إنتاجيته. كما يمكن أن يعمل اليوم هنا أو هناك، ويمكن أن يخط بالمحراث خطاً غير مستقيم هنا ومستقيم

هناك، ويعود ليستكمل اليوم ما تركه بالأمس. . . دون أن يضطرب عمله أو عمل غيره أو يتأثر او يتوقف. كما أنَّ العمل الذي يقوم به ابنه الأكبر يمكن أن يقوم به ابنه الذي يليه دون ما تأثير. . إلخ وينتج عن هذا نمط للشخصية لا يهتم كثيراً بالتحديد والضبط والدقة الشديدة، طالما كان التجاوز عنها لا يسبب عرقلة لعملية الإنتاج أو لسير العمل.

ولنتأمل مظاهر هذه السمة في الشخصية العربية فنجد الكثير الذي يدلُّ على توفرها. فالمواعيد قل أن تحترم فيأتي الفرد غالباً متأخراً عن موعده، وإذا ما تصفحت برنامجاً للإذاعة وقابلته بالبث الفعلي فسوف تجد فارقاً كثيراً، وإذا ما قرأت كتاباً أو مقالة مطبوعة ببلد عربي وجدت الكثير من الأخطاء المطبعية، التي يصل بعضها إلى حد الذهاب بالمعنى الذي قصده المؤلف أو الكاتب، وإذا ما قارنت بين منتج أجنبي وآخر عربي من نفس الصنف وجدت فارقاً في دقَّة الصناعة (وتشطيبها) لصالح المنتج الأجنبي، وإذا ما وضعت خطة لإنجاز عمل معين أو القيام بمشروع معين في بلد عربي قل أن تجده نفَّذها حسب الخطة، في حين نجد الأمر على العكس في البلاد الصناعية. . . وهكذا. بل إنَّ ما يمكن أن نطلق عليه اللامبالاة والتسيب والإهمال يرتبط بهذه السمة أيضاً ويعتبر مظهراً سلبياً وضاراً بأمتنا العربية إلى حد كبير.

ومن الجدير بالذكر أنَّ سمات الشخصية القبلية الشائعة في الشخصية العربية تؤثر بدورها، بل وتعتبر من العوامل المسببة للوحدة الانفعالية وتقلبها ـ التي سبق أن ناقشناها في البند الأول من هذا البحث ـ حيث تمتاز الشخصية القبلية بحرارة الانفعال وتدفق العواطف وتحولها حسب درجة القرابة دون حاجة إلى مبرر عقلاني هادىء متزن.

ثانياً ـ الخصائص ذات الطابع الفكري:

والآن لننتقل إلى الخصائص ذات الطابع الذي يغلب عليه الجانب

الفكري أو العقلي أو المعرفي. وسوف نكتفي بذكر ثلاث من أهم ما نعتقد أنّه يميز الشخصية العربية في هذا المجال، كما فعلنا عند الحديث عن الخصائص ذات الطابع الانفعالي.

١ ـ سيادة التفكير الغيبي:

يقصد بالتفكير الغيبي ذلك النوع من التفكير الذي يرجع الأمور والأحداث وظواهر الكون إلى علل ومسببات وعوامل سحرية وغيبية وقوى فوق طبيعية. فالأمطار تنزل بسبب رضاء إلّه المطر في موعدها وبالقدر المناسب والمفيد، وتمتنع أو تنزل بكميات كبيرة تجلب للناس الخطر بسبب غضب إلّه المطر. وهذا الشخص قد أصيب بكارثة لأنّه رأى بومة في الصباح. وهذا قد شفي من مرضه لأنّه علّق على صدره تعويذة هذا العراف الطيب.. إنّ الأمور في هذا النوع من التفكير تتجاهل الأسباب العلمية والطبيعية والحقيقية للأشياء والظواهر. فلا المطر متسبب عن السحب والرياح ودرجات الحرارة، ولا المرض متسبب عن ميكروبات أو اضطرابات تصيب الإنسان، بل إنّ هذا وغيره راجع إلى قوى غيبية يستعصي علينا إدراك كنهها والسيطرة عليها إلّا بالعرافين والمشعوذين والسحرة والكهنة الذين يلجأون بدورهم إلى أساليب تخصصوا فيها وأجادوها لاسترضاء تلك القوى وتسخيرها لتحقيق مطالبهم ورغباتهم؛ حسب ما يوهمون به السذج من الناس.

ومن أخطار انتشار التفكير الغيبي واختفاء التفكير العلمي أن تركن الشخصية إلى الكسل والخمول وعدم السعي إلى تحقيق منفعتها ودرء الضرر عنها بالأساليب العلمية وبالتماس الأسباب الحقيقية والطبيعية التي تؤدي بها إلى ذلك. فالمريض في التفكير الغيبي لا يلجأ إلى الطبيب بل إلى المشعوذ والساحر، والقائد الذي يقود جيشاً لمعركة لا يلتمس الانتصار في وضع خطة هجوم رشيدة، وتدريب أفراد قواته تدريباً كافياً، وإمدادهم بالمعدات الحربية الممتازة واللازمة، وتقوية روحهم المعنوية للمعركة، بل يتجاهل كل هذا ذاهباً إلى الساحر يقرأ له تعويذة، ويكتب له تميمة، ويستحضر له بعض

الأرواح الموهومة، ويستعطفها لتكون بجانبه معينة له على النصر، مفتتة له في عضد خصمه وهكذا. . .

والتفكير الغيبي هذا سمة للشخصية البدائية وللشخصية الطفلية. ومع تقدم المجتمع في سلم المدنية والحضارة يقل التفكير الغيبي وينحسر تاركاً المجال للتفكير العلمي السببي. فالتفكير الغيبي كان ضرورة للبدائي ليجيب عن تساؤلاته عن ظواهر الكون والأحداث التي لم يكن علمه ولا منهجه في البحث يسعفاه لمعرفتها المعرفة الصحيحة. لكن الآن، حيث تقدم العلم هذا التقدم المذهل، وسارت قدم الإنسان على سطح القمر، لا يعود للتفكير الغيبي مجال في عالمنا المعاصر إلاَّ في أضيق النطاق. ففي مصر قامت ليلى كرم الدين ببحث عن العلية عند الأطفال تبين منه بوضوح نتيجة مقابلاتها للأطفال وتجاربها عليهم ومقارنة ذلك بنتائج بحوث مشابهة في سويسرا وكندا أنَّ الأطفال المصريين بصفة عامة متأخرون، من حيث التفكير العلي العلمي عن أقرانهم السويسريين والكنديين في نفس مستوى السن، ولا يصل الأطفال المصريون إلى مراحل التفكير السببي الأكثر تقدماً إلاَّ في سن متأخرة عن الأطفال السويسريين والكنديين[1].

وما من شك أنَّنا في حاجة إلى بحث مماثل في كل بلد من بلاد الوطن العربي حتى تتأكد ملاحظتنا هذه عن سيادة التفكير الغيبي في الشخصية العربية.

ومن مضار التفكير الغيبي أنَّه يؤدي بالشخصية إلى الاعتماد على تحقيق أهدافها بوسائل سحرية خرافية وليس بالوسائل الموضوعية التي تلزم فعلاً لتحقيق الهدف، كما سبق أن أشرنا. فالعمل الجاد المبني على التخطيط وربط المقدمات بالنتائج والأشياء بمسبباتها هو الذي يوصل إلى

---

(١) ليلى كرم الدين: تطور فكرة العلية عند الطفل ـ رسالة ماجستير غير منشورة ـ قسم علم النفس ـ كلية الآداب ـ جامعة عين شمس ـ ١٩٧٦.

الهدف، أمّا الاستكانة إلى الأفكار الغيبية عن النصيب والقسمة ورضاء إله الحرب أو سخطه، دون السعي والاجتهاد الجادين لتحقيق الهدف بالوسائل الطبيعية، فهو التخلف بعينه، ودمار المجتمع بأكمله، والحكمة تقول لكل مجتهد نصيب، ومن هنا نرى أنَّ أهم الظواهر الإيجابية في الوطن العربي الآن هو إيمان مواطنيه بأنَّ التحدي الأساسي الذي يواجه الأمَّة العربية إنما هو التحدي الحضاري بكافة أبعاده.

وإذا ما تأملنا السبب الجوهري وراء سيادة التفكير الغيبي في الشخصية العربية لوجدناه كامناً وراء أسلوبنا في تنشئة أبنائنا وتربيتهم وتعليمهم سواء في ذلك عن طريق الأسرة أو المدرسة أو الوسائل المختلفة للإعلام. فكلها تغرس في نفوس الأبناء الإيمان بالغيبيات والخرافات، سواء بوعي أو عن غير وعي، وكأنّنا بلغنا من المازوخية النفسية ما جعلنا نستهدف تدمير الشخصية العربية بيدنا لا بيد غيرنا.

٢ ـ سيادة الأمية وتخلف التعليم:

لا زال يمثل تخلف التعليم وانتشار الأمية سمة أساسية من سمات الشخصية العربية حتى الآن إذ «لا زالت نسبة الأمية مرتفعة في الوطن العربي رغم انخفاضها المستمر من ٨٠٪ إلى ٧٣٪ إلى ٦٣٪ في الأعوام ١٩٦٢، ١٩٧٠، ١٩٧٥ على الترتيب»[١].

كما أنَّ مستوى التعليم في مدارسنا وجامعاتنا متخلف إلى حد كبير وبصفة عامة، على الرغم من أنَّ هذا المستوى كان في العصور الوسطى أعلى مستوى في العالم كله إذ كان ـ ولا يزال ـ يوجد بالوطن العربي أقدم وأشهر جامعات العالم كالأزهر في القاهرة، وكالقرويين في فاس، حيث جاوز كل منهما الألف عام منارة للعلم ومركزاً لطالبيه من أنحاء العالم قاطبة.

(١) الدكتور سعد زغلول: دراسة تحليلية للسكان والأمية في الوطن العربي ـ تعليم الجماهير ـ العدد التاسع ـ السنة الرابعة ـ مايو ١٩٧٧ ـ ص ٤٥ تصدر عن الجهاز العربي لمحو الأمية وتعليم الكبار.

ومن أخطر الآثار السلبية لسيادة الأمية وتخلف التعليم على الشخصية العربية أنها تيسر انتشار التفكير الغيبي وتعمل على مقاومة التفكير العلمي، حيث إنَّ انتشار التعليم وارتفاع مستواه يدعمان الاتجاه العلمي في التفكير والعمل معاً. كما يضاف إلى هذا الأثر السلبي ما نلاحظه الآن من أنَّ كل تقدم تحرزه المجتمعات يكاد يعتمد بالدرجة الأولى على التقدم العلمي بها واستعانتها بالتكنولوجيا الحديثة في مختلف نواحي النشاط والحياة. والأمة العربية تنشد التنمية بمختلف جوانبها حتى تقوى على مجابهة هذا التحدي الاستعماري الصهيوني الرهيب، والذي يستهدف القضاء على كيانها وهويتها. والتنمية بصفة عامة في أي مجتمع تتطلب محواً للأمية، ويلزمها مستوى تعليمياً عالياً بين أفراد المجتمع الذي ينشدها ويحققها، على نحو ما بينَّا في الفصل السابق عن «التعليم والتدريب والإنتاجية».

وفي اعتقادنا أنَّ سيادة الأمية وتخلف التعليم في الوطن العربي يرجع إلى تخاذل المسؤولين عن التعليم في القضاء على الأمية ورفع مستوى التعليم، وإلى انعدام النوايا المخلصة لعلاج هذه المشكلة من جانبهم، يمثل ما يرجع إلى عدم توافر الظروف المادية والاجتماعية والتاريخية المناسبة، إذ أنَّ تجارب البلاد التي تشابه ظروفنا قد أثبتت إمكانية محو الأمية في وقت قصير عندما تهيأت لها الظروف المناسبة، أو هيَّأت هي لنفسها هذه الظروف.

٣ ـ توافر الطاقات الأساسية العقلية والعملية:

يلاحظ على الشخصية العربية أنَّها تتمتع بما يتمتع به غيرها من الشخصيات القومية الأخرى من طاقات وإمكانيات عقلية ومهارات عملية مختلفة: كالذكاء، والقدرات العقلية الخاصة كالقدرة الميكانيكية والقدرة المكانية والقدرة الحسابية والقدرات الفنية، والمهارات الخاصة باستخدام الأصابع واليدين والقدمين والحواس.. ولا يكاد الأمر يختلف في الشخصية العربية عنه في أي شخصية قومية أخرى إلاَّ فيما يتعلق بمدى توافر الظروف البيئية المختلفة التي تلزم لإظهار هذه الطاقات وتنميتها وتهيئة أفضل الأجواء

للاستفادة منها، وعدم إهدارها. وفي مجال المقارنة بين شخصية قومية وشخصية قومية أخرى نجانب الصواب إن قلنا إنَّ هذه ترث وراثة بيولوجية أفضل من حيث الذكاء أو القدرة الحسابية أو الذاكرة.. إلخ إنَّما نكون أقرب إلى الصواب إن قلنا بتعادل الميراث البيولوجي واختلاف ظروف التنشئة وعوامل الثقافة الطبيعية الخاصة بيئة كل منهما، مما يتسبب عنه تهيئة جو أفضل لإبراز طاقات هذه الشخصية القومية، وإهدار طاقات تلك الشخصية القومية الأخرى. فالعبقري ما لم تتح له الظروف المناسبة لإظهار عبقريته سوف يظل مغموراً لا يتميز عن بقية الناس. ولتأييد هذا الرأي نرجع إلى ما كتبته آن أنستازي ـ وهي من أشهر وأدق علماء النفس الذين اهتموا بدراسة الفروق الفردية والفروق بين الجماعات. ففي الفصل الذي كتبته عن «الفروق الكبرى بين الجماعات» تشير إلى بحث أجري على أطفال بين العاشرة والثانية عشرة من جماعات مختلفة من القوقازيين كانوا يعيشون في المناطق القروية بألمانيا وفرنسا وإيطاليا. فمن ألمانيا أخذت عينات من النورديين والألبيين، ومن فرنسا أخذت عينات من النورديين والألبيين وسكان البحر الأبيض، ومن إيطاليا أخذت عينات من الألبيين وسكان البحر الأبيض، واختبر كل هؤلاء الأطفال بستة اختبارات من مقاييس الذكاء العلمي لبنتز وبارسون، «وكانت تعطى التعليمات شفهياً وباختصار بنفس لغة الطفل. وحينما قسم الأطفال حسب سلالتهم، لوحظ أن هناك فروقا ذات دلالة في متوسط الدرجات... أضف إلى هذا، أنه وجدت فوارق واضحة بين أبناء السلالة الواحدة الذين ينتمون إلى الأوطان الثلاثة. وعلى سبيل المثال، نذكر أنَّ الفرق بين جماعة من النورديين وجماعة غيرهم من النورديين أيضاً ممن ينتمون إلى وطن آخر، كان أكبر كثيراً من الفرق بين النورديين جميعاً كسلالة، وسكان البحر الأبيض كسلالة أخرى. مثل هذه النتائج تجعلنا نقترح أنَّه لا أساس لترتيب السلالات في النواحي العقلية، وأنَّ المرجع الأكبر للفروق بين الجماعات هو العوامل الحضارية في مختلف البيئات»[1].

(١) آن انستازي: الفروق الكبرى بين الجماعات ـ ترجمة الدكتور مختار حمزة ـ في ميادين علم =

وإذا استعرضنا أوجه النشاط العلمي والفني والتطبيقي والعملي المختلفة وجدنا فيها جميعاً أسماء عربية تنال الاحترام والتقدير على أعلى المستويات العالمية، سواء منها من هجر وطنه العربي إلى بلد آخر هيَّأ له إمكانيات التفوق ووفر له ظروفه، أو من ظل بوطنه العربي يكرِّس له طاقته وجهوده. وإذا رجعنا إلى الماضي القريب والبعيد وجدنا الكثير من العبقريات العربية في مختلف المجالات على امتداد الماضي واتصال التاريخ. فمن العبقريات العسكرية نجد ـ على سبيل المثال ـ خالد بن الوليد وعبد الكريم الخطابي، ومن العبقريات العلمية نجد ـ على سبيل المثال أيضاً ـ الرازي وابن خلدون، ومن العبقريات الفلسفية نجد ـ على سبيل المثال كذلك ـ ابن رشد والفارابي، ومن رجال الدولة العباقرة نجد عمر بن الخطاب وعمر بن عبد العزيز.. إلخ. وبصفة عامة فإنَّ الحضارة الحديثة مدينة إلى حد بعيد للحضارة العربية التي سادت العالم في العصور الوسطى، ولا يستطيع حتى غلاة المتعصبين ضدَّ العرب إنكار هذه الحقيقة المؤكدة.

إلاَّ أنَّ الظروف التي يمر بها المجتمع العربي في الفترة التاريخية الراهنة، وواقعه الاجتماعي والثقافي الحاضر لا يساعد الشخصية العربية على أن تتضح طاقاتها وتنمى إمكانياتها العقلية والفكرية والعملية إلى الحد اللائق بها وبتاريخها. فالأطماع تحيط بها من كل جانب تستنفد اهتماماتها، وتبدد طاقاتها، وتشتت تركيزها عن تنمية إمكانياتها وتعبئتها بما يحقق للشخصية العربية قوتها ونبوغها وتكاملها، ويعيد لها إسهامها الفعَّال فى الحضارة العالمية وتقدم الإنسانية.

مستقبل الشخصية العربية:

ناقشنا حتى الآن بعض الخصائص السيكلوجية للشخصية العربية

= النفس، المجلد الثاني ـ ترجمة بإشراف الدكتور يوسف مراد ـ دار المعارف ـ القاهرة ـ ١٩٥٦ ـ ص ٦١٢.

الحالية من وجهة نظرنا وينبغي علينا أن ننتقل إلى تأمل ما نرجح أن تكون عليه الشخصية العربية في مستقبلها القريب.

إنَّ الشخصية العربية، والتي تبدو حالياً غارقة في متناقضاتها وسلبياتها وصراعاتها وأزماتها، والتي يتربص بها أعداء أقوياء في الوقت الحالي يريدون تدميرها والقضاء عليها، نقول إنَّ هذه الشخصية العربية بظروفها الحالية تدعونا إلى التفاؤل بدرجة كبيرة. فأغلب سلبيات الشخصية العربية يمكن محاصرتها وعلاجها أو على الأقل تلافي مضارها، وفي حالات كثيرة يمكن الاستفادة منها لصالح القضية العربية. فإذا بدأنا بخاصية «حدَّة الانفعال» فإنَّه يمكننا أن نستفيد منها في تعبئة الأمة العربية ضدَّ أعدائها لمقاومتهم، واستثارة التعاطف الوجداني بين مواطني الدول العربية لزيادة التماسك القومي العربي. كما يمكن تلافي التأثير الضار لهذه الخاصية عن طريق إرشاد أجهزة الإعلام إلى عدم الترويج والتضخيم للقضايا والأحداث التي قد تؤلب جزءاً من الوطن العربي ضدَّ جزء آخر... وهكذا. وإذا انتقلنا إلى خاصية «التوحد بالمعتدي» نرى أنَّ تأثيرها الإيجابي واضح حيث التوحد بما في هذا المعتدي من مزايا كصفات الدقة والضبط والموضوعية والتفكير العلمي الرزين... كما أنَّ التوحد بالمعتدي شيء لازم لنا حتى نحس القوة والثقة بالنفس والرغبة في قهر المعتدي والتغلب عليه، فنتبع ما يتبع من سبل لنصل إلى تحقيق أغراضنا كما نجحنا في ذلك في حرب أكتوبر. أمَّا سلبيات التوحد بالمعتدي فإنَّ مجرد وعينا بها، وحذرنا من الوقوع فيها، سوف يجنبنا معظم أخطارها. وبالنسبة «لسمات الشخصية القبلية» نستطيع أن نقول إنَّ إيجابياتها على الشخصية العربية تفوق كثيراً سلبياتها، فهي الأصل في تماسك العرب في وحدة تجمع مشاعرهم وتقوِّي تعاطفهم وتوحِّد مصالحهم، حتى وإن ظهر على السطح أحياناً ما يخالف ذلك. أمَّا سلبياتها من حيث الذاتية ونقص الموضوعية فإنَّها في بداية طريقها نحو الزوال نظراً لبدء دخول أجزاء هامة من الوطن العربي مرحلة التصنيع والميكنة الزراعية. والتي من طبيعتها أن تقضي

على مثل هذه السلبيات، كما سبق أن أوضحنا عند مناقشتنا هذه الخاصية. فإذا ما انتقلنا إلى خاصية «التفكير الغيبي» وجدنا أنَّ وعينا بها وبسلبياتها سوف يدفعنا بالضرورة إلى محاصرتها والقضاء عليها. كما أنَّ الأمل كبير في أن ننجح في القضاء على الأمية وفي رفع مستوى التعليم في القريب العاجل، عن طريق الاهتمام الجدي بهذه المشكلة وعند ذاك سوف يعمل هذا بالإضافة إلى دخول الأمة العربية مرحلة التصنيع على اندحار التفكير الغيبي وحلول التفكير العلمي مكانه، على نحو ما حدث الآن في بلاد العالم المتحضرة والمتقدمة. وإذا أضفنا إلى ذلك خاصية «توافر الطاقات الأساسية العقلية والعملية» في الشخصية العربية أصبحت ثقتنا أكبر في أنّ الشخصية العربية سوف تتجاوز بسرعة سلبياتها وتتغلّب على نقاط الضعف فيها بما لديها من طاقات تمكنها من ذلك عندما تحسن استخدامها، ولا مفر لها من أن تحسن ذلك.

ومما يزيدنا تفاؤلاً بالنسبة لمستقبل الشخصية العربية أنَّ معظم العرب بدأوا يدركون أننا نعيش في عالم الكيانات العظمى (حيث يمكن للكبير إن شاء أن يفترس الصغير)، وليس هناك مجال للكيانات الصغيرة، حتى إنَّ الكيانات الصغيرة بدأت تبحث عن وحدة مصطنعة لتحقيق المنفعة المتبادلة وضماناً لمستقبل أفضل، فهناك مجموعة السوق الأوروبية، ومجموعة الكومنويلث، ومجموعة حلف الأطلنطي، ومجموعة حلف وارسو، ومنظمة الوحدة الإفريقية... إلخ. وفي إدراك العرب لهذه الحقيقة إقناع أكبر لهم بأهمية الوحدة حتى تصبح مطلبهم المخلص شعبياً ورسمياً. فالوحدة العربية ليست لصالح جزء من الأمة العربية على حساب غيره، بل هي لصالح تقوية وتنمية الجميع. فالتكامل بين البلاد العربية شديد الوضوح بحيث لا تقوى بلد واحد لو انغلقت على نفسها أن تحقق تنمية حقيقية تصمد أمام كيد الاستعمار قديمه عسكرياً، وحديثه اقتصادياً. فالبلد العربي المكتظ بالرجال والخبرة ينقصه المال الذي يتوفر في البلد العربي الآخر الذي تنقصه الخبرة ويقل

مواطنوه. والمال المكدَّس في البنوك لا تزيد قيمته عن قيمة الورق والصكوك البنكية الدالة عليه ما لم يحول من أرقام صمَّاء إلى مصانع تعمل، وأرض تستزرع، وثروات حيوانية تنمى وتكثر... والبلد العربي الذي يضيق عن هذا الاستثمار يجاوره البلد العربي الذي يحتاج إلى أضعافه... وهكذا يبدو تبادل المنفعة في الوحدة العربية واضحاً لأغلب أبناء الأمة.

وربما كان من حسن حظ الشخصية العربية، أن ازدادت قناعة أغلب العرب (خاصة في اللحظة التاريخية الحالية) بسعي إسرائيل لابتلاع أكثر ما تستطيع من البلاد العربية مستندة في ذلك إلى أوهى الأسباب. ولما كان في تفرق العرب ضعفهم مما يسهل على إسرائيل ابتلاع البلاد العربية واحدة تلو أخرى، وفي وحدتهم قوَّتهم مما يجعل الأمر صعباً على إسرائيل، نقول من حسن حظ الشخصية العربية إن تأكد لها سعي إسرائيل لتدميرها، وإزاء هذا الخطر لا بدَّ للشخصية العربية من أن تتقوى وتنفض عنها سلبياتها وتعالج أمراضها. وربما يصبح تمسك إسرائيل بعدوانها السافر واستفزازها المتكرر للعرب من حسن حظ العرب، بمثل ما كان اضطهاد الأوروبيين ثمَّ النازية لليهود من أهم العوامل التي ساعدت على قيام إسرائيل وتدعيمها. فإذا أضفنا إلى كل ذلك جانبين هامين من جوانب الشخصية العربية أولهما هو ثروتها واقتصادها القوي، وثانيهما هو كثافتها البشرية الضخمة (حيث يبلغ العرب الآن ما يزيد عن المائة مليون)، أدركنا مدى موضوعية تفاؤلنا بمستقبل الشخصية العربية في المدى القريب، حيث تصبح شخصية قوية متكاملة متماسكة، تتمتع بالكثير من الإيجابيات التي تمكنها من تحقيق آمالها، وتختفي منها سلبياتها وأمراضها التي تبدو الآن على السطح معرقلة لها، ومقيدة لإمكانياتها ومهددة لطموحاتها وآمالها.

خاتمة:

حاولنا في هذا البحث أن نتأمل سيكلوجية الشخصية العربية ـ كما تبدو لنا ـ في الوقت الحالي ثمَّ في المستقبل القريب. كما حاولنا التزام

الموضوعية قدر المستطاع والتجرد قدر المستطاع، إيماناً منّا بأنَّ الحقيقة ـ حتى لو كانت مرة ـ هي الأجدر بالظهور، وهي الأولى بالنشر، والأحق بالوعي. فالمعرفة بحقيقية الشيء من ألزم الأمور لإصلاحه وتقويمه، ومعرفة كيفية الاستفادة منه والتعامل معه، جلباً لفوائده، ودرءاً لأضراره. إننا إذا أحسنا معرفة الشيء سهل علينا التحكم فيه وفي آثاره. ومن هنا تتضح أهمية الحكمة التي وجدها سقراط مكتوبة على معبد دلفي «اعرف نفسك» فرفعها شعاراً له.

لقد أثبت الدكتور مصطفى زيور في مقالة عن المعرفة والشفاء[1]، العلاقة الجدلية بين معرفة المريض بحقيقة نفسه وشفائه من أمراضها في تجربة التحليل النفسي.

ولسنا نشك في أنَّ ما يصدق على الشخصية الفردية يصدق إلى حد لا بأس به على الشخصية القومية (كالشخصية العربية). ومن هنا كان إيماننا بأهمية الشعار الذي رفعه سقراط، ودعوتنا إلى المفكرين والعلماء العرب للقيام بدراسات ـ كل في مجال تخصصه واهتمامه ـ عن العرب وأعدائهم، وعن العدوان الاستعماري والتحدي الحضاري الذي يجابههم.

(١) دكتور مصطفى زيور: المعرفة والشفاء ـ مجلة الصحة النفسية ـ المجلد الأول ـ العدد الأول ـ ١٩٥٨ ص ٧ ـ ٣٩.

المـــراجع

١ ـ آن أنستازي: الفروق الكبرى بين الجماعات ـ ترجمة د. مختار حمزة ـ في ميادين علم النفس ـ المجلد الثاني ترجمة بإشراف د. يوسف مراد ـ دار المعارف ـ القاهرة ـ ١٩٥٦ .

٢ ـ أنا فرويد: الأنا وميكانيزمات الدفاع ـ ترجمة د. صلاح مخيمر وعبده ميخائيل رزق. مراجعة د. مصطفى زيور ـ الأنجلو المصرية. القاهرة ـ ١٩٧٢ .

٣ ـ دكتور سعد زغلول: دراسة تحليلية للسكان والأمية في الوطن العربي ـ تعليم الجماهير ـ عدد ٩ ـ مايو ١٩٧٧ .

٤ ـ ليلى كرم الدين: تطور فكرة العلية عند الطفل: رسالة ماجستير غير منشورة ـ قدمت لآداب عين شمس ـ ١٩٧٦ .

٥ ـ د. مصطفى زيور: المعرفة والشفاء ـ مجلة الصحة النفسية ـ مجلد: ١ ـ عدد: ١ ـ ١٩٥٨ .

٦ ـ Argyle, M; Psychology and Social Problems, Social Science Paper - Backs, London, 1967.

٧ ـ English, H. B, and A. C. English, A Comprehensive Dictionary Of Psychological and Psychoanalytical Terms, Longmans, 1958.